



عيد معمودية الرب (الغطاس)

دكتور

جورج حبيب بياوي

٢٠١٦

إذا دققنا النظر في ذكصولوجية عيد الغطاس المجيد، وجدنا معظم ما ذكره آباء الكنيسة:

"حينئذٍ امتلأً فمنا فرحاً ولساننا تهليلاً

لأن ربنا يسوع المسيح اعتمد من يوحنا"

بالحقيقة السماء والأرض مملوءتان من كرامتك

أيها الرب ذو اليد القادرة والذراع الممدودة

لأن الرب أتى واعتمد من أجل خطايانا نحن

وأنقذنا وخلصنا برأفةٍ عظيمة".

بعد تمجيد ربنا، يدخل التمجيد في الجانب الكوني Cosmic وذلك باستدعاء الصوت النبوي من الأسفار المقدسة، وهو صوت حضور الأنبياء في اجتماع الكنيسة:

"تعال يا داود في وسطنا اليوم لتتطق بكرامة هذا العيد

صوت الرب على المياه إله المجد أرعد".

أشعيا دعاه صوت الصارخ بفرح في البراري للسعي الكامل (استعلان التدبير) البحر رأى فهرب. الأردن رجع إلى الخلف:

مالك أيها البحر هربت. اثبت **ματαχρον** لكي تتبارك

هوذا المياه قد رأت الخالق الجابل، فخافت وأدركها الاضطراب والحيرة

افرحي أيتها الجبال والأكام الغياض والأرز من قدام وجه الملك

الذي خلق كل من له نفس **ἡμῶν** (الكائن الحي).

ثم يعود الإيقاع اللاهوتي إلى الثالث:

"قدوس أنت أيها الرب

قدوس قدوس أيها الرب يسوع

يليق به مع أبيه والروح القدس".

ولا تنتهي الذكولوجية عند ذلك؛ لأن هذا لا يصدر من القلب إلى فراغ،
أي من مجرد القول والتسبيح الصادر من القلب فقط، ويقف عند التمجيد، بل

"من أجل هذا نحن أغنياء بالخيرات الكاملة (عطية الروح القدس وميراث
الملكوت) وبإيمانٍ نرتل قائلين هليلويا ... يسوع المسيح ابن الله اعتمد في
نهر الأردن. هذا الذي ينبغي له المجد مع أبيه الصالح والروح القدس من الآن
وإلى الأبد".

وحسب التسليم تنتهي الذكولوجية بالسجود لمن هو حاضر، وهو أساس
اجتماع الكنيسة، بل أساسها الأبدي غير المتزعزع.

في الذكولوجية الثانية يأتي صوت كنيسة الإسكندرية القديم جداً؛ لأننا من

شهادة أكليمنضس السكندري^(١) نعرف أن عيد المعمودية الرب كان عيداً عظيماً في القرن الثاني، وتبعه في ذلك العلامة العظيم أوريجينوس الذي يبدو أنه اقتبس لحن الكنيسة عندما كان يشرح المعمودية الرب^(٢)، كما حفظ أيضاً لنا التسليم العبراني – الآرامي القديم عندما نقرأ بدقة هذه الكلمات:

"الإله الوحيد جاء إلى الأردن،

الصورة التي فسدت وماتت بالخطية،

حددها مرةً أخرى بمعمودية الماء،

ورضَّ رأس التنين (الشيطان) على مياه الأردن".

وهزيمة التنين على مياه الأردن، وتهليل بركة الأردن مثل حملان الغنم وهي تفرح برؤية الراعي، نراه في صلوات تقديس المياه في سر المعمودية:

"تهلل مثل حملان أيها الأردن وبريته، فقد أتى إليك الحمل حامل خطية العالم".

حامل خطية العالم

من الأخطاء الشائعة ظنٌّ غير معروف لنا في تراثنا الأرثوذكسي، وهو أن كلمة حامل تعني "يحمل"، أي يأخذ ويحمل ويضع على كتفه، أو يقبله له ليكون الحمل الثقيل الذي يحمله، ولكن الترجمة الأصح هي "يرفع"، ولاحظ صيغة المفرد

(١) أكليمنضس السكندري Paed.1.b في PG,8 عمود ٢٨٠.

(٢) "تهلل مثل الحملان أيها الأردن"، وردت في عظات العلامة أوريجينوس على سفر يشوع، عظة ٤: ٢.

"خطية العالم"، وليس خطايا العالم؛ لأن خطية العالم هي ترك الشركة، وهو "الصورة التي فسدت وماتت بالخطية. ولذلك - بكل يقين - فإن فصل الخطية عن الموت، وقد أشرنا إلى ذلك مراراً، هو إحدى سقطات العصر الوسيط الذي أتى بالخطية كمحورٍ وحيدٍ يشرح حتى الخلاص نفسه، وترك صلاح وغنى محبة الله، الأساس الأبدي للخلاص الإنسان. فما أعظم الفرق بين مخلصٍ "من طبيعه" المحبة، وقد جاء بمحبته، ومخلصٍ جاء لأن الإنسان وقع في أسر الشيطان والموت، هذا جاء ليفك الأسر ويجرر، بينما المخلص الذي هو المحبة الإلهية الكاملة، فقد جاء بصلاحٍ فائقٍ: رد الحياة - فك الأسر - أعطى ميراث الملكوت - منح البنوة - سكب الروح القدس - جعل الإنسان هيكل حضوره الأبدي، بينما حصار الخلاص في الخطية، جعل الكثيرون يهملون ما أشرنا إليه الآن.

والحمَل هو حمل الفصح الذي ردَّ ملاك الموت عن الشعب، وهو هنا يرفع قوة الموت؛ لأنه "رضاً رأس التنين على المياه" (مز ٧٤: ١٣)، وهو ما نراه عادةً في أيقونات معمودية الرب، إما في شكل تنين أو شخصٍ في سلاسل أسفل المياه. ونشيد مزمو ٧٤: ١٣ عن هزيمة التنين هو الخروج من أرض مصر وغرق قوة الموت التي تطارد الشعب في البحر الأحمر. وقد جُمِعَت هذه الأحداث الخلاصية في صلوات المعمودية في كنيسة القبطية، وتجدها في عظات العلامة أوريجينوس على إنجيل يوحنا (٦: ٤٢، وشذرة ٧٦، والعظة ٢١ على إنجيل لوقا)^(١).

الرب يسوع قَبْلَ الروح القدس لأجلنا

الأردن اسم عبراني قديم من الفعل "يارد"، أي النازل من فوق إلى أسفل، وعن ذلك يقول العلامة أوريجينوس:

(١) راجع كتابنا: المعمودية في الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية، القاهرة ٢٠١٢، ص ١٤٢ - ١٦٦.

"أردن تعني (النازل)، ولكن النازل هو (نهر الله)، ذلك النهر الذي يفيض وتجري فيه المياه بقوة هو الرب مخلصنا الذي فيه قد نلنا المعمودية بمياه حقيقية، مياه الخلاص" (عظة ٢١: ٤ على إنجيل لوقا).

لقد "استقر" الروح على يسوع، أي استراح فيه، فهو القدوس الذي بلا خطية وحده. وفي المسيح الذي مُسِحَ، فصار "المسيح"، اعتمدنا نحن ومُسِحنا نحن فيه (أثناسيوس العظيم في الرد على الأريوسيين ١: ٤٧). ولغة وهدف الآباء، وبالذات أثناسيوس وكيرلس السكندري^(١) تعني الكثير بالنسبة لنا:

أولاً: الروح ثابت الحلول في يسوع؛ لأنه الوسيط الذي جاء لكي يعطي الروح القدس للخطاة، وبسبب ثبات وقداثة بر يسوع، لا يترك الروح الخطاة، ولا يفارق الخطاه كما حدث بعد السقوط (تك ٦: ٣)، بل كما تسلّمنا من الرب نفسه "يمكث معكم إلى الأبد" (يو ١٤: ١٦).

كان من الضروري أن يُستعلن قبول يسوع للروح القدس علانيةً في التاريخ وأمام شهودٍ لكي ترسخ هذه الحقيقة في قلوبنا.

ثانياً: تقديس المياه وفرح الخليقة، ليس الأردن والبرية فقط، بل لقد تمت الأقوال النبوية، فقد جاء يسوع رب المجد لكي "يجمع الكل تحت رأس واحد" (أف ١: ١٠)، وعندما يجمع كل شيء ويمتد التدبير لكل الأزمنة، يكون قد صالح الكل "لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات" (كولوسي ١: ٢٠)، ولذلك يجب استعلان تقديس المياه بالمصالحة ورد القداسة للعالم المادي الذي سقط بسوء استعمال وفساد الإنسان وأخضع "البطل" وفساد تصورات قلب الإنسان "ليس طوعاً بل من أجل الذي أخضعها" (رو ٨: ٢٠).

(١) راجع: لماذا اعتمد يسوع؟ مقال سبق أن نُشر في مجلة مرقس، ومنشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

تحت ثقل الشعور بالذنب، نرى كل ما حولنا نجساً وذنساً وشريراً، ولكن الحق المعلن في المسيح هو عكس ذلك؛ لأن الخطية استطاعت أن تلوث حياتنا وفكرنا، لكن إعادة تقديس المياه وإعادة استدعاء الروح القدس هو ترياق لكل النفوس المعذبة الرازحة تحت ثقل الشعور بالخطية.

عندما نأخذ المياه المقدسة لمنازلنا، فإننا بالرش، نضع هذه المنازل في تدبير خدمة الرب. ونحن مثل المياه، لننا تقديساً لا تمحوه الخطية لأن "نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت لكثيرين" (رو ٥ : ١٥)، ولذلك يحذرننا رسول رب المجد من أن نقارن الخطية بالنعمة "ليس كالخطية هكذا أيضاً الهبة" (رو ٥ : ١٥).

سوف يبقى اسم "عيد الغطاس" علامة لغوية تذكّرنا بأن المعمودية هي بالتغطيس؛ لأننا نعلم مثل سيدنا وملكنا كلنا ربنا يسوع المسيح.

كل عام وأنت بخير